الباب الثاني ١-٢

التّحقيق العلميّ

التّحقيق، التّأصيل، الشّرّح

كان اهتمامُ مؤرِّخي الطِّبِّ الغربيين **بمحتوى طِبِّ العيون العربيّ** بالدَّرجة الأولى، وليس بطريقة المؤلِّف في عرض المادَّة العلميَّة، ولا بمقدرته اللُّغوية ولا برأيه في تصنيف المادَّة وتبويبها ولا بسلاسة أسلوبه في الكتابة، ولا بأمورٍ أخرى ممَّا يمكن أنْ يكونَ مُهمًّا في تحقيق كتابٍ في الفلسفة أو الأدب أو غير ذلك.

ومن هنا نفهم اهتمامَ هيرشبرغ **بترجمة** كتاب عليّ بن عيسى[1] (تذكِرة الكَحَّالين) وليس **بتحقيقه.**

فالمؤرِّخُ العالِمُ يعرفُ المادَّةَ العلميَّة للكتاب ويسهل عليه أنْ يفهمَ العبارات التي كتبها المؤلِّف، ذلك أنَّه يعرفُ مقصدَ الكاتب الذي يُتْقِنُ المادَّةَ نفسَها، والذي لا مجال للشَّكِّ –عمومًا– بأنَّه يؤلِّفُ في علمٍ لا يتقنه.

ولمَّا كان هيرشبرغ يعرف المصدرَ الإغريقيَّ لهذه المادَّة العلميَّة فإنَّه من السَّهل عليه أنْ يُعيدَ كُلَّ فكرةٍ علميَّةٍ إلى أصلها، وأنْ يقارنَ عبارةَ المؤلِّف العربيِّ بالمؤلِّفِ الإغريقيِّ، وأنْ يصدرَ حكمًا ما إذا كان المؤلِّفُ العربيُّ أقدرَ على وصف علاماتِ بعض الأمراض من سَلَفه اليونانيّ، أو إذا كان أبلغَ عبارةً أو أسهلَ أسلوبًا.

وقد أصدرَ مثل هذه الأحكام، فالباحث النَّزيه في تاريخ العلم يؤمنُ بأنَّ العلمَ يتطوَّر، وأنَّ الخَلَفَ يجب أنْ يتجاوزَ السَّلَف.

١- نشر ترجمةَ الكتاب عام (١٩٠٤).

وإذا وجد المحقِّقُ أنَّ بعض عبارات المؤلِّف جاءت غامضةً فإنَّه يستطيع أنْ يشرحها من وحي معرفته بالمادَّة العلميَّة من جهة، ومن معرفته لمصدرها الإغريقيِّ من جهةٍ أخرى.

هذا في ما يتعلَّق بإعادة كتابة المادَّة العلميَّة المخطوطة.

أمَّا إذا وجدَ المحقِّقُ أنَّ ثمَّة أفكارًا لا يعرف أصلها، فعليه أنْ ينقِّبَ عنها في مصادر أخرى، وإلَّا فإنَّه ينبغي أنْ يعترفَ بأنَّه لم ينجح في معرفة أصلِها وبالتالي فإنَّه يشير إلى أنَّها قد تكون من الأفكار **الأصيلة** التي أتى بها المؤلِّف.

اكتشف هيرشبرغ حينما ترجمَ كتابَ عمَّار بن عليّ الموصليّ[1] (المُنتخب في علاج أمراض العين) أنَّ جزءًا مُهمًّا من مادَّة الكتاب العلميَّة لم يكن قد سبقَ المؤلِّفَ إليها مؤلِّفٌ آخر، وعلى ذلك فقد وصف هذه المادَّة بـ(المادَّة الأصيلة)، ولذلك قال عن عمَّار إنَّه أكثر المؤلِّفين العرب (أصالةً).

هذا النَّوع من التَّحقيق والتَّأصيل نفتقده بعدَ أعمال هيرشبرغ، نفتقده عند المستشرقين وعند مؤرِّخي الطِّبِّ في الشَّرق. وإذا عرفنا أنَّ هيرشبرغ نشر آخرَ أعماله قبل قرنٍ كاملٍ، فإنَّه من المؤسف ألَّا نجد أنَّ هذا الأسلوب العلميَّ الصَّحيح قد ترسَّخَ ووجد صدًى عند المحقِّقين العرب –عمومًا–.

سبق أنْ ذكرنا أنَّ هيرشبرغ حينما حقَّقَ[2] المادَّة العلميَّة المتعلِّقة بعلم العين من كتاب ابن سينا (القانون في الطِّبِّ)، وبعد ذلك حينما حقَّق[3] كتاب عليّ بن

١- ظهر كتاب عمَّار في القاهرة حوالي عام (٤٠٠هـ=١٠١٠م).

ودقَّق هيرشبرغ الكتاب وترجمه إلى (الألمانيَّة) ونشر الترجمة عام (١٩٠٥) ولم يُعْلن عن مصير الدراسة التي أجراها للنصِّ العربيّ.

٢- عام (١٩٠٢).

٣- عمل على الترجمة مع زميله المستشرق (J.Lippert) ونشرا الترجمة عام (١٩٠٤).

عيسى (تذكِرةِ الكَحَّالين)، أراد أنْ يضعَ القارئ في صورة (مستوى المعرفة) التي يمثِّلها الكتاب الذي هو بصدد دراسته، كما أراد أنْ يؤصِّلَ هذه المعرفة، وأنْ يعرفَ مصادر المؤلِّف في كُلِّ مرَّةٍ.

لنتساءَل الآن ما هو هذا (التَّأصيل)؟ إنَّه البحث عن المصدر الذي أخذ عنه المؤلِّفُ هذه (الحقيقة) العلميَّة، ومقارنة هذا المصدر بالمادَّة موضع التَّحقيق، وذلك لإثبات أنَّ هذا المصدر بالذات هو الذي أخذ عنه المؤلِّف الجديد.

وعلى المحقِّق أنْ يكونَ منصفًا في هذه المقارنة، وأنْ يبيِّنَ أنَّ الكاتب حينما ينقل عن سَلَفٍ له، فهو يقوم بعملٍ مشروعٍ وطبيعيٍّ، بل وبَدهيٍّ، فالمعرفة (والحقائق العلميَّة) تنتقل من السَّلف إلى الخلف.

وقد يجد المحقِّقُ أنَّ الكاتبَ اعتمد على مصدرين أو أكثر واختار منها أو مزجَ مادَّتها وخرج منها بعبارةٍ جديدةٍ، وهو بذلك يبرهن على معرفةٍ واسعةٍ بتراث السَّلف.

قام هيرشبرغ بهذا العمل قيام الأستاذ القدير والمؤرِّخ ذي الاطِّلاع الواسع على تاريخ الطِّبِّ. أشار في هوامش التَّرجمة، حينما نقل عبارات ابن سينا أو عبارات عليّ بن عيسى إلى المصدر الإغريقيّ الذي يقدِّر -عن معرفةٍ- أنَّ المؤَلِّفَ العربيَّ أخذ عنه، فنرى مثلًا أنَّ هذه العبارة مأخوذةٌ من جالينوس أو من بولص الأيجيني أو غيره.

وقد يكون الأصلُ الإغريقيُّ -الذي كان مصدرًا للمؤلِّف العربيّ- معروفًا، وصل إلى عصرنا، وقد يكون قد ضاع من زمنٍ طويلٍ أو قصيرٍ، وقد يكون هذا الأصل قد وصل بعباراتِ المؤلِّفِ في كتابٍ له، أو وصل على شكل مقتبساتٍ في كتُب المتأخرين الذين أخذوا عن هذا المصدر، والذين صاروا بدورهم مصدرًا للمؤلِّف العربيّ.

وأشهر مثالٍ على ذلك هو كُنَّاش أهرن القسّ الإسكندرانيّ، فهذا الكُنَّاش كُتِبَ في الإسكندرية في القرن السَّادس الميلاديّ[١] باللُّغةِ الإغريقيَّة[٢]، وذاع صيته، وتُرْجِمَ إلى اللُّغة السُّريانيَّة[٣]، ثُمَّ نقله ماسرجويه البصريّ[٤] إلى العربيَّة، من ترجمته السُّريانيَّة[٥].

لقد ضاع الأصلُ الإغريقيُّ، وضاعت التَّرجمة السُّريانيَّة، وضاعت التَّرجمة العربيَّة أيضًا، ولم يصل منها إلَّا بعض الاقتباسات في كُتُبِ الطِّبِّ العربيَّة في القرنين التاسع والعاشر، وأكثر هذه الاقتباسات هي تلك الموجودة في كتاب الرازي (الحاوي في الطِّبّ). أمَّا بعد عصر الرازي فلا نعرف ما إذا كانت الاقتباسات مأخوذةً مباشرةً عن كتاب أهرُن أم أنَّها مأخوذةٌ عن (الحاوي).

وهذا مثالٌ آخر:

كتب ديموستينس[٦] (Demosthenes) كتابًا في علم العين يعدُّ أهمَّ ما كتبه الإغريق في هذا الحقل.

لكنَّ هذا الكتاب لم يصل إلى العرب، وبالتالي لم يعرفه المؤلِّفون العرب. لكنَّ الكتاب كان موضع اهتمام عددٍ من المؤلِّفين الإغريق[٧] فنقلوا مقتبساتٍ منه، وقد

١- يرجّح أنَّه عاشَ في أواخر القرن السادس، وربَّما عاش حتى القرن السابع الميلادي.

٢- وليس صحيحًا ما نُقِلَ عن ابن أبي أصيبعة، من أنَّ الكتابَ أُلِّفَ بالسُّريانيَّة. يُنظر: عيون الأنباء: (١٠٩/١).

٣- ترجمه جوسيوس (Gossios) وهو من أهل القرن السادس الميلادي. ينظر: سزكين: (١٦٦/٣).

٤- أول مترجمٍ لكتابٍ طِبيٍّ إلى العربيَّة، عاش في أوائل العصر الأمويّ.

٥- رأى الكتابُ النورَ أيام عمر بن عبد العزيز، أيْ قبيل عام (١٠١هـ=٧٢٠م). ينظر: ابن جلجل: طبقات الأطباء: (ص٦١) (ت بعد ٣٨٤هـ=٩٩٤م).

٦- (Demosthenes) عاش في أيام نيرون في القرن الأوَّل الميلاديّ، وكان حيًّا بين (٥٤-٥٨م). بقيت أجزاء من الكتاب بترجمةٍ لاتينيةٍ.

٧- أهمُّهم أَئِتيوس الآمدي (Aëtius). وبولص الإيجيني (Paulus).

تناقل هؤلاء هذه المقتبسات لفترةٍ طويلةٍ من الزَّمن ووصلت إلى أيام بولص الإيجيني (الذي سمَّاه العرب بولص القوابلي) في القرن السَّابع الميلاديّ.

ولأنَّ هيرشبرغ مختصٌّ بالتُّراث الإغريقيّ في علم العين، فإنَّه كان قادرًا على اكتشاف تأثير كتاب ديموسثينس في العرب تأثيرًا غير مباشر.

وهذا مثالٌ أخير:

كتب أَئِتيوس الآمدي (Aetius) في القرن السَّادس الميلاديّ كتابًا موسوعيًّا خصَّصَ منه جزءًا لعلم العين.

وهذا الكتاب لم يصل إلى العرب في عصر التَّرجمة وبالتالي فإنَّ العرب لم يأخذوا شيئًا عنه، لكنَّ هيرشبرغ حينما درس المؤلَّفات العربيَّة في طِبِّ العين استطاع أنْ يعرفَ أين تأثَّرَ العرب بآراء أَئِتيوس تأثُّرًا غير مباشر.

وفي الحقيقة فإنَّ (المعارف العلميَّة) تنتقل من جيلٍ إلى جيل عبر القرون، وعلى المحقِّقِ أنْ يعرفَ كيف وصلت هذه (المعارف) إلى الكاتب الذي هو موضوع عناية المحقِّق.

في هوامش هيرشبرغ على ترجمتي (التَّذكِرة) و(القانون) نجد عباراتٍ كثيرةً أخذها هيرشبرغ من كتاب أَئِتيوس.

وهذه العبارات ينبغي أنْ تكونَ موضوع دراسةٍ مقارنةٍ، ذلك أنَّ الكتابَ تُرجِمَ إلى العربيَّةِ[١] متأخرًا ونقل عنه خليفة ابن أبي المحاسن الحلبيّ في القرن الثالث عشر في كتابه (الكافي في الكُحْل).

هذا المستوى الرفيع من التَّحقيق والتَّأصيل الذي نجده عند هيرشبرغ هو المستوى المثالي للعمل في تحقيق تراث طِبِّ العين العربيِّ –برأينا المتواضع– وهو يستدعي اطِّلاعًا شاملًا وعميقًا على كتب التراث.

١– ترجَمَه ابن الخمَّار في القرن العاشر. يُنظر: سزكين: (١٦٥/٣).

إذا أردنا أنْ نسيرَ على خطا هيرشبرغ فعلينا أنْ نعرفَ كيف كانت سلسلة التأثُّر عند المؤلِّفين العرب. كيف نقل المتأخر عن المتقدِّم؟

مَنْ مِنَ المؤلِّفين العرب وصلت أعمالُهُ إلى كتاب (الحاوي)؟

ومن هم الذين أخذوا عن (الحاوي) قبل عصر عليّ بن عيسى؟

وكيف تأثَّرَ المؤلِّفون الذين عاشوا بين عصر الرازي وعصر عليّ بن عيسى بالرازي، وبحنين؟

وهل أثَّرَ هؤلاء في عليّ بن عيسى؟

لقد توفي حنين قبل نهاية القرن التاسع، وتوفي الرازي بعد نهاية الربع الأوَّل من القرن العاشر، وعاش الكشكري في مطلع القرن العاشر، وأخرج كتابه بين عامي (٩٢٣-٩٣٢م)، وبعده عاش في هذا القرن عليّ بن العبَّاس المجوسيّ، وأبو الحسن الطَّبريّ، أمَّا عليّ بن عيسى فقد كتب كتابه (تذكِرة الكَحَّالين) في السَّنوات الأولى من القرن الحادي عشر، أيْ بعد أنْ غاب كُلُّ هؤلاء.

إذا عَرَفَ المحقِّقُ المادَّة العلميَّة للكتاب الذي يعمل على تحقيقه فإنَّه يكون بمنجًى من أنْ يقع في خطأ ناجمٍ عن سوء كتابة المخطوطة، أيْ أنَّه يحصِّنُ نفسه ضدَّ أخطاء النُّسَّاخ التي كثيرًا ما تسبِّبُ إرهاقًا للمحقِّق الذي يتعبه خط الناسخ إذا كان رديئًا صعب القراءة، أو تضلِّله بعضُ الكلمات التي كتبها الناسخ، وهي بعيدةٌ جدًّا عن الكلمة الصَّحيحة.

والأمثلة كثيرةٌ، لا نريد هنا أنْ نذكرَ شيئًا منها، فإنَّ لها مقامًا آخر.

من هنا نفهم أنَّه بالنِّسبة لمؤرِّخٍ من مؤرِّخي العلوم يعرف العربيَّة، تكون ترجمةُ مخطوطٍ عربيٍّ إلى لغة المؤرِّخِ أسهل بكثيرٍ من تحقيق هذا المخطوط بلغته الأصلية.

وقد عمل هيرشبرغ الذي يعرف المادَّة العلميَّة، ويعرف كيف تطوَّرت من أقدم العصور التي وصلت إلى العرب، عمل مع ليبيرت (Lippert) ومتفوخ (Mittwoch) على ترجمة بعض أهمِّ الأعمال العربيَّة في (علم العين)[١].

حينما توفي هيرشبرغ لم يكن مايرهوف قد نشر (مقالات) حنين، وبالتالي فإنَّ هيرشبرغ لم يَرَ الأصلَ العربيَّ لكتاب حنين هذا، بينما كان يعرف ترجمته اللاتينيَّة، كما أسلفنا.

وسبق أنْ قلنا كذلك إنَّ هيرشبرغ تحقَّقَ من صحة التَّرجمة اللاتينيَّة للمقتبسات التي أخذها الرازي من كتاب حنين وحفظها في (الحاوي).

واليوم، صار نصُّ المقالات بلغته الأصليَّة بين أيدي الباحثين، وصار (الحاوي) كذلك بنصِّه العربيِّ متوفرًا فلم يبقَ على الباحثين -الآن- إلَّا أنْ يتأكَّدوا من حجم المقتبسات الموجودة في (الحاوي)، والمأخوذة من كتاب حنين.

أمَّا مادَّة طِبِّ العين الموجودة في (الحاوي)، والتي لم يأخذها الرازي من حنين فهي مادَّة جديرةٌ بالاهتمام.

نحن نعرفُ أنَّه لم تصدر كتُبٌ مُهمَّةٌ باللُّغة العربيَّة بين زمن حنين وزمن وفاة الرازي، فمن أين أتى الرازي بهذه المقتبسات؟

إنَّ بعض هذه المقتبسات يعود إلى مؤلِّفين عاشوا قبل عصر حنين، منهم ماسرجويه البصريّ على سبيل المثال، وبعض هذه المقتبسات مأخوذٌ من ترجماتٍ قديمةٍ، ترجمة كتاب أهرُن القِسّ التي قام بها ماسرجويه نفسه على سبيل المثال كذلك، لكنْ هناك مصادر أخرى.

١- ترجمة كتاب (القانون): عام (١٩٠٢).

- ترجمة كتاب (تذكِرة الكَحَّالين): عام (١٩٠٤).
- ترجمة كتاب (المُنتخب): عام (١٩٠٥).

ربَّما كان أصل هذه المقتبسات -أو بعضها- من ترجماتٍ عربيَّةٍ لكتبٍ يونانيَّةٍ لا نعرفها، أو ترجماتٍ عربيَّةٍ لكتُبٍ سُريانيَّةٍ لا نعرفها كانت رائجةً بين أيدي الناطقين بالسُّريانيَّة -بوصفها لغةً للعلم- هؤلاء العلماء السُّريان الذين عاشوا قبل عصر حنين[1] أو بين عصر حنين وعصر الرازي.

والاحتمال الثالث أنْ تكون ترجماتٍ عن الفارسيَّة.

لكنَّ ثمَّةَ احتمالًا رابعًا أنْ تكون مأخوذةً من مؤلَّفاتٍ عربيَّةٍ لم تلفت نظرَ الباحثين، وأنْ يكون أصحاب هذه الكُتُب قد عاشوا قبل عصر الرازي، أو حتى قبلَ حنين[2]، وأنْ تكون هذه المؤلَّفات قد ضاعت.

إذا وضعنا هذا الاحتمال نَصْبَ أعيننا، فإنَّه من الممكن أنْ تكونَ بعضُ هذه المقتبسات مأخوذةً عن أحد كتابي ابن ماسويه اللذين وصلا إلى عصرنا في مخطوطاتٍ لم يحقِّقها أحدٌ بعد.

وهذه مُهمَّةٌ يجب ألَّا تغيبَ عن بال الباحث الذي يريد أنْ يؤرِّخَ لطِبِّ العيون العربيِّ قبل عصر الرازي.

♣ ♣ ♣

في مقدِّمة كتاب (التَّذكِرة) لعليّ بن عيسى يذكر المؤلِّف أنَّه جمعَ معظمَ مادَّة الكتاب من مؤلِّفين سبقوه، لكنَّه لا يذكر أسماءَهم كُلَّهم[3]، ونحن نستطيع أنْ نقدِّرَ

١- ومنهم: ١- اشليمون. ينظر: سزكين: (١٧٦/٣). ٢- سرابيون. ينظر: سزكين: (٢٢٨/٣).

٢- من الذين عاشوا قبل عصر حنين: أ- ماسرجويه الجنديسابوريّ الذي كان حيًّا قبل (٢٠٠هـ=٨١٥م) والذي ألَّف كتابًا (في العين). ومن الذين عاصروه: ١- جبرائيل بن بُختيشوع بن جورجيس الذي كتب (مقالة في العين). ٢- وجبرائيل كَحَّال المأمون.

٣- يذكر عليّ بن عيسى من هؤلاء جالينوس وحنين. وقد عرف هيرشبرغ بالدراسة المقارنة بعضهم؛ فمن الإغريق: إبقراط، وديوسقوريدوس، لكنَّ جالينوس كان أوسعهم تأثيرًا في عليّ بن عيسى، ومنهم كذلك اريباسيوس وبولص من المتأخرين.

أنَّ الرازي كان من جملة هؤلاء، أو من أهمِّهم، لكنْ من هم الآخرون –من المؤلِّفين العرب–.

إذا عدنا لاستعراض أسماء المؤلِّفين الذين عاشوا بين زمن الرازي وزمن عليّ ابن عيسى –أيْ بين مطلع القرن العاشر حينما توفي الرازي[1]، ونهاية هذا القرن يوم كتب عليّ بن عيسى تذكِرته[2]– فإنَّنا نجدُ ثلاثةً من المؤلِّفين الكبار:

الأول: هو الكشكري[3] الذي كتب كُنَّاشه بين عامي (٩٢٣–٩٣٢م) والذي كان أستاذًا وطبيبًا في بغداد، والذي صار كتابه الآن متوفرًا بفضل الأستاذ سزكين.

والثاني: هو عليّ بن العبَّاس المجوسيّ، الشَّهير صاحب (الكتاب المَلكيّ)، المتوفى حوالي منتصف القرن العاشر[4].

والثالث: هو أبو الحسن، أحمد بن محمَّد الطَّبريّ[5] صاحب كتاب (المُعالجات البُقراطيَّة) و(العين في المعالجة)، وفي الكتاب الأوَّل خصَّصَ أبو الحسن مقالةً

١– توفي الرازي عام (٩٢٥ أو ٩٣٢م).

٢– يقدِّر هيرشبرغ أنَّ عليًّا بن عيسى كتب (التَّذكِرة) عام (٤٠٠هـ=١٠١٠م)، توفي علي بن عيسى عام (٤٢٩هـ=١٠٣٩م).

٣– يعقوب الكشكري، صاحب الكُنَّاش.

وقد نشر الأستاذ سزكين هذا الكتاب مصوَّرًا، والأستاذ سزكين هو الذي اكتشفَ الكتابَ والمؤلِّفَ، وكان المعتقد أنَّ المخطوطة التي هي (كُنَّاش الكشكري) إنَّما هي من مؤلَّفات ابن سرابيون.

يُنظر: مقدِّمة الأستاذ سزكين للكتاب. آراء ودراسات: (١٦١/٢): "كُنَّاش الكشكري".

٤– عليّ بن العبَّاس المجوسيّ، من أهل النِّصف الثاني من القرن العاشر. يُنظر: سزكين: (٣٢٠/٣).

٥– أبو الحسن، أحمد بن محمَّد الطَّبريّ، من أهل النصف الثاني من القرن العاشر. يُنظر: سزكين: (٣٠٨/٣).

ضخمةً لأمراض العين، لكنَّها أصغر حجمًا من كتابه الثاني الذي لم يصل إلى عصرنا (العين في المعالجة).

عليّ بن عيسى يمكن -إذًا- أنْ يكون قد اطَّلع على هذه الكتُب، أو على بعضها. وهذه مُهمَّةٌ جديدةٌ للباحث الذي يريد أنْ يؤَصِّلَ المادَّة العلميَّة، هل أخذ عليّ بن عيسى عن أحد هؤلاء؟

♣ ♣ ♣

في حدود ما نعلم فإنَّ أحدًا من مؤرِّخي الطِّبِّ -بعد هيرشبرغ- لم يدرس (تذكرة الكَحَّالين) بقصد تأصيل المعلومات الواردة فيها.

وفي حدود معرفتنا فإنَّ المقارنة بين المادَّة العلميَّة الواردة في (التَّذكِرةِ) والمادَّة العلميَّة الموجودة عند حنين تُظْهِرُ بوضوحٍ أنَّ عليًّا بن عيسى استند على معلومات حنين، ونقل عنه، وقد كان النقل في بعض الأحيان حرفيًّا.

بقي على الباحثين أنْ يحدِّدوا المادَّة التي لم يأخذها صاحب (التَّذكِرةِ) عن حنين، وبعدها يمكن أنْ نبحث عن أصولها عند الكشكريِّ والمجوسيِّ والطَّبريِّ.

بمقارنة بعض الموضوعات المشتركة بين هذه الكتب الثلاثة يتبيَّن أنَّ الكشكري اعتمد هو أيضًا على حنين قبل أنْ يفعلَ عليّ بن عيسى ذلك بنصف قرنٍ على الأقلِّ.

أمَّا عليّ بن العبَّاس المجوسيّ فكان يعرف أعمال حنين بالتأكيد، لكنَّ المقارنة بين المؤلِّفين لم تنته بعد.

أمَّا الطَّبريّ (أحمد بن محمَّد) فكان أكثرَ استقلاليةً عن حنين، وكان له مصادره الخاصَّة التي لا نعرف عنها شيئًا، إضافةً إلى أنَّه يُسمِّي عددًا من الكَحَّالين الذين استفاد منهم، ونحن لا نعرف شيئًا عن معظم هؤلاء، ولكنَّ الطَّبريَّ ذكر حنينًا وكتابه، ووجَّهَ نقدًا للمؤلِّف.

يمكن لنا هنا أنْ نقولَ بشكلٍ مؤكَّدٍ إنَّ الكشكريَّ في كُنَّاشه تـأثَّر كثيرًا بحنين، ونقل عنه.

أمَّا أحمد بن محمَّد الطَّبريّ فقد كان لـه حظُ معرفة مصـادرَ أخرى للمعرفة الطِّبيَّة، ولكنَّ دراستنا لهذا المؤلِّف لم تكتمل بعد.

في هذه الحدود الأوَّليَّة لا نعرفُ ما إذا كان عليّ بن عيسى قد نقل عن غير حنين من هؤلاء المؤلِّفين الثلاثة.

♣ ♣ ♣

إذا طبّقنا منهجَ البحثِ نفسَهُ على المادَّة العلميَّة الواردة في (قانون) ابن سينا فإنَّنا نجد أنَّ ابن سينا كان له أيضًا -مثل الطَّبريِّ- مصادرُهُ الخاصَّة، على الرَّغم من تأثُّره بحنين.

ومن المُهمِ أنْ نؤكِّدَ أنَّ هذه الدِّراسـة المقارنـة ما تزال في بداياتها وهي تبشِّرُ بمزيدٍ من الاستنتاجات التي ستوَضِّحُ لدارسي تاريخ الطِّبِّ العربيِّ مَنْ مِنَ المؤلِّفين اعتمد علـى مَنْ؟ وهنـا يُعيننا فـي الإجابـة علـى التَّسـاؤل هل تـأثَّرَ علـيُّ بن عيسـى بهؤلاء المؤلِّفين، وإلى أيّ مدًى تأثَّرَ هؤلاء بحنين، وذلك لكي تكتملَ السِّلسلة.

ويبدو لنـا أنَّ خليفـة بـن أبـي المحاسـن الحلبـيّ الـذي عـاشَ فـي القرن الثالـث عشر كان على معرفةٍ أكيدةٍ بأهميَّة أبي الحسن الطَّبريّ وابن سينا فنقل عنهما - تمامًا كما نقل علـيّ بن عيسـى- عددًا كبيرًا من المقتبسـات -وكـان النقل مُسْنَدًا- وهو أقرب إلى النَّقل الحرفيّ.

كـان خليفة ينقل عن هؤلاء الثلاثـة، إلـى جانـب النَّصِّ الذي يكتبه هو، وهو يقصد بذلك أنْ يُغْنيَ الكتابَ بمصادر ثلاثةٍ متميزةٍ، وأنْ يؤكّدَ لقارئ كتابه، أنَّ هذا

الكتاب لم يُكْتَب اعتمادًا على مصادر محدودةٍ، بل إنَّ المؤلِّفَ يشرف على التراث كُلِّه من عَلٍ، ويأخذ منه أهمَّ فقراته.

لقد خَصَّ خليفة هؤلاء المؤلِّفين الثلاثة بهذا الشَّرف، على الرَّغم من أنَّه يذكر في مقدِّمة كتابه أسماء أكثر من عشرة مراجعَ أخذ عنها بشكلٍ رئيسيٍّ.

ونجد في متن كتابه أسماء ما يقارب الخمسين مرجعًا.

وإلى جانب تقدير خليفة لهؤلاء المؤلِّفين، فلا شكَّ أنَّه كان يدرك الفرق بين هذا المؤلِّف وذاك من حيث المصادر التي أخذ عنها، وقد يترتب علينا أنْ نفهمَ من موقف خليفة احتمال أنَّه عدَّهم من مدارسَ مختلفةٍ، وهذا أمرٌ يجب أنْ نتحقَّقَ منه.

نستنتجُ من هذا كُلِّهِ أنَّ أطبَّاء القرن العاشر اعتمدوا اعتمادًا كبيرًا على حنين، لقد كان حنين أستاذًا، ومصدرًا أساسيًّا للجميع، فهل كان إلى جانب حنين مؤلِّفٌ آخر أثَّرَ في مؤلِّفي القرن العاشر، ولو بدرجةٍ أقلّ؟

إنَّ دراسةَ ما كتبه يوحنا بن ماسويه، يمكن أنْ يجيبَ على هذا التَّساؤل، إذا تبيَّنَ لنا أنَّ ما كتبه يوحنا قد وصل إلى عصرنا مفهومًا، لكنَّ المعلومات الأوَّليَّة التي يعرفها مؤرِّخو الطِّبِّ عن كتاب (دَغَل العين) لا تدفع إلى التَّفاؤل، فالكتاب وصل مشوَّهًا.

مع ذلك لا بُدَّ من إخراج مادَّة هذا الكتاب، وبعدها يمكن أنْ ندرسَ الخطوةَ المقبلة.

والسُّؤال نفسه ينطبق على كتاب ابن ماسويه الآخر (معرفة مِحْنة الكَحَّالين)، لكنَّ صِغرَ حجم هذا الكتاب لا يوحي بأنَّ الحالة معه ستكون أفضلَ من الحالة مع (دَغَل العين).

على الرَّغم من دواعي التَّشاؤم هذه فلا بُدَّ من تحقيق الكتابين، أو على الأقلِّ لا بُدَّ من استخراج المادَّة العلميَّة منهما، وبعد ذلك لكُلِّ حادثٍ حديث.

على الرَّغم من أنَّ كتاب (دَغَل العين) كان موضعَ دراسةٍ من قبلِ مايرهوف وپروفر (Prüfer) إلَّا أنَّ قيمته الحقيقية لم تتّضح بعد.

ومع ذلك فقد قال الباحثان عن ابن ماسويه إنَّه كان له بعض الاصطلاحات الخاصَّة، التي تختلف عن اصطلاحات حنين. وهذا صحيحٌ.

وكان مايرهوف –حينما حقَّقَ مقالات حنين– قد قال إنَّ بعضَ الاصطلاحات في علم العين يعود الفضل في إيجادها إلى حنين. وهذا صحيحٌ أيضًا.

لكنَّ موضوع الاصطلاحات ما يزال ينتظر دراساتٍ أعمق:

١– ما هي الاصطلاحات التي كانت معروفةً عند المؤلِّفين قبل عصر حنين وابن ماسويه؟

٢– كيف نفسِّر أنَّ ابن ماسويه يذكر اصطلاحاتٍ كثيرةً، ويشرح للقارئ سبب وضع هذه الاصطلاحات؟

لقد كان مايرهوف يعتقد أنَّ حنينًا هو الذي وضع هذه الاصطلاحات، فهل هذا كلامٌ دقيقٌ؟

هل نقل ابن ماسويه عن حنين **سببَ** وضع هذه الاصطلاحات؟ أم أنَّ **سببَ** وضع هذه الاصطلاحات كان معروفًا للجميع أيام حنين؟

إنَّ الدِّراسة الأوليَّة لكتابَي ابن ماسويه تشير إلى أنَّ المؤلِّفَ يذكر سببَ تسمية أجزاء العين بهذه الأسماء عند الإغريق: (القَرنيَّة، والبَيضيَّة، والبَرَديَّة...)، فإذا نحن لم نجد هذه الاصطلاحات عند مؤلِّفٍ أقدم من حنين فهذا يعني أنَّها وُضِعَتْ في زمنه، وبالتالي فهو المرشَّحُ الأجدر لأنْ يكونَ أوَّلَ من وضعها، فالقرن التاسع لا يعرفُ رجلًا يتقن الإغريقيَّة كما أتقنها حنين.

يبقى التَّساؤل الأخير في هذا الموضوع، وهو عن ما يجب أنْ يساهمَ فيه العارفون باللُّغة السُّريانيَّة، فلعَلَّ السُّريان قبل القرن التاسع كانوا قد ترجموا هذه الاصطلاحات الإغريقيَّة إلى لغتهم، وبالتالي كانوا يعرفون سببَ تسميتها بهذه

الأسماء، ومن هنا فإنَّ هؤلاء المترجمين السُّريان يكونون أصحاب الفضل في تمهيد الطَّريق لحنين ولابن ماسويه لفهم معنى الاصطلاح الطِّبِّيِّ الإغريقيِّ بلغة الإغريق، وبالتالي وضعوا له اسمًا سُريانيًّا مناسبًا، هو الذي أوحى بوضع الاسم العربيِّ.

في السَّنوات الأخيرة توفَّرَ لنا كنزٌ من اصطلاحات عصر ما قبل حنين، نعني بذلك اصطلاحات عيسى بن حكم في (رسالته الهارونيَّة)(١)، وهذه الاصطلاحات كبيرةُ الأهميةِ من وجهة نظر (تاريخ ظهور الاصطلاح) في اللُّغة العربيَّة.

وفي هذه الاصطلاحات لا نجد أسماءَ أجزاء العين التي ألمحنا إليها: (القَرنية، والبَيضيَّة...).

وهذا يرجِّح أنَّ هذه الاصطلاحات وُضِعَتْ بعد أيام عيسى بن حكم، ويرشَّحُ حنين لأنْ يكونَ واضعها. وهذا ما ذهبَ إليه مايرهوف.

ودراستنا المقارنة هذه بين حنين ويوحنا بن ماسويه، لا تعدو أنْ تكونَ تلميحًا إلى أنَّ ابن ماسويه يمكن أنْ يكونَ هو أيضًا ساهمَ في وضعِ بعض هذه الاصطلاحات.

١- (الرِّسالة الهارونيَّة): تمَّ تحقيقُها مؤخرًا تحقيقًا علميًّا عام (٢٠٠٢).

تحقيق: (Suzanne GIGNDET). المعهد الفرنسي للشرق الأوسط. دمشق.

- ووجدنا في **(الهارونية)** اصطلاحات تتعلَّق بالعين وأمراضها، منها:

الحَدَقَة بمعنى المُقْلَة، والجَرَب، والحِكَّة، وحِكَّة الأجفان، وغِشاوَة العين، وغِشاوَة البَصَر، ونزول المَاء في العين، والقدح، والشَّعر الزائد، والظَّفَرَة، والدَّم المُنعقد في العين، والبَياض، والكُمْنة، والعَمَش، والرَّمَد، وظُلْمَة البَصَر، وظُلْمَة العين، والأُكَال، ورطوبة العين، والقُروح، والبُثور، والخُشونَة التي في العيون، والدَّمْعَة الدَائمة، وسقوط شَعْر الحاجِب، والأجفان التي قد استحرَّت، وينبت شَعْر الأجفان، والاحتراق، والسُّلاق، ووَرَم العين، والحُمْرة، والآثار، والغَمام، والصِئبان، ووَجَع البَصَر، ووَجَع العين، ونقص البصر.

لكنَّنا نعرف أنَّ ابن ماسويه لم يكن بحالٍ من الأحوال في مستوى حنين من حيث إتقان اللُّغة اليونانيَّة، وهذا ما يعيدُ التفكير في أنَّ حنينًا كان أولى بأنْ يفسِّرَ للقارئ معنى هذه الاصطلاحات باليونانيَّة وسبب اعتمادها في اللُّغة العربيَّة، أولى من ابن ماسويه ومن غيره.

يظلُّ الاحتمال الأخير الذي ذكرناه، وهو أنْ يكونَ أحد المترجمين أو أحد المؤلِّفين السُّريان هو الذي سبق وفسَّرَ معنى الاصطلاح اليونانيِّ، وبالتالي سَبَبَ اعتمادِهِ اصطلاحًا باليونانيَّة، وبذلك يكون هذا العمل هو الخطوة التي سهَّلت لحنين ولابن ماسويه أنْ يكتبا (التَّفسيرَ) لقرَّاء العربيَّة.

ولكنْ... هل كان حنين يحتاج إلى من يهوِّنُ عليه مُهمَّةَ فهم الاصطلاحِ الإغريقيِّ؟

تظلُّ هذه الأسئلة قائمةً إلى أنْ نجد نصًّا سريانيًّا يسهِّلُ الإجابة، فهل نجد مثل هذا النَّصِّ؟

الأرجح أنْ تكونَ مثل هذه الآمال عديمة الجدوى، ذلك أنَّ المُعْتَقد –في الوقت الحالي– هو أنَّ معظمَ النُّصوص الطِّبِّيَّة السُّريانيَّة في حكم المفقودة.

وعلى أيِّ حالٍ فإنَّ معرفة طريقة وضع هذه الاصطلاحات وزمن وضعها سيكون أمرًا مُهمًّا في ما يخصُّ (المعجم التَّاريخيّ للُّغة العربيَّة) .